فسترى الاجيال المقبلة ما للمداولات السياسية السرية من الفضل في حلّ مشاكل الامم

وقد ادرك العقلاء في القرنين الماضيين ان الحكومة المستقلة المنفردة لا يمكن ان تكون غاية الغايات في الشوء السياسي وانهُ لا غنى للحكومات المختلفة من انشاء اتحاد سلمي وعرض اسباب النزاع والشحناء بينهن على محكمة ذات قوة كافية لانفاذ احكامها. ومن تأليف بوليس مختلط لارغام الدولة المتشيقة بعنادها . كذلك ادركوا ان في الامكان انشاء اتحاد من الحكومات المستقلة على مرّ الزمان

ويقال في ختام هذا البحث انهُ ما من وسيلة مادية مهما بلغ من اتقانها تستطيع ان تنيلنا هذه الغاية التي هي امنية كل رجل بارّ عاقل بل لابدّ من ثورة ادبية اصعب مراساً واشدّ مساساً بالجوهر . فقد قيل انهُ لما عرض القس « سان بيير » اقتراحهُ المشار اليهِ آنفاً على الكردينال فلوري قال « هذه فكرة بديعة لولا اغفال امر واحد . فانهُ لم يذكر فيها شيء عن ارسال الرسل لتغيير قلوب الملوك والامراء » . والحق يقال انهُ مهما بلغت وسائلنا من الكمال والاتقان فلا تفي بالغرض الاّ اذا حسبت حساباً لانتداب اناس يغيرون قلوب الامم فحينئذٍ تنجح محالفتهم حيث اخفقت المحالفة المقدسة التي عقدت بين الملوك المستبدين في اوائل القرن الماضي

طبيبات النساء

في انكلترا

من غريب ما يذكر عن الانكليز انهم على كونهم اعرق امم الارض في الحرية الشخصية والسياسية واسبقهم الى الدفاع عن الدستور حتى سمّي برلمانهم « ام البرلمانات » واولعهم في احترام المرأة حتى اتقد بعدّ احترامهم لها ولفضائلها التي هي واسطة عقدها في مقدمة الاسباب التي آلت الى تفوق الامم الانجلوسكسونية على غيرها — على ذلك كلهِ نراهم مسبوقين في مسئلة من كبريات المسائل التي لها اعظم مساس بالحرية الشخصية واحترام المرأة ومساواتها بالرجل وهي مسئلة نساء والطب

فقد انشأنا مقالة في تعلُّم النساء صناعة الطب نشرت في الجزء الاول من السنة السابعة للمقتطف (١٨٨٢) جاء فيها ما يأتي :

« اشتهرت مدارس ايطاليا الجامعة بتعليم النساء العلم والطب اكثر من غيرها من المدارس فانهُ كان في مدرسة بولونيا الجامعة في القرن الثالث عشر امرأتان الواحدة استاذة

للفلسفة والاخرى استاذة للفقه . وخرج من مدرسة بادوى الجامعة كثيرات من العالمات الشهيرات مثل الينا كرنارو التي كانت تعرف الفرنساوية والاسبانية واللاتينية واليونانية والعبرانية والعربية وكانت بارعة في الموسيقى والتصوير والفلسفة والرياضيات واللاهوت . ولما بلغت الثانية والثلاثين من عمرها قلدتها مدرسة بادوى لقب دكتور في الفلسفة . ومن النساء اللواتي تعلمن الطب واشتهرن بالعلم في ايطاليا لورا كاتريا بسي التي درست الفلسفة والطب والرياضيات والطبيعيات على اشهر علماء زمانها . ولما بلغت الحادية والعشرين من عمرها طلب منها ان تخطب خطبة فلسفية في محفل حافل بالعلماء وكان المتوشى على ذلك المحفل الكردينال لمبرتيني (الذي صار بعد ذلك بابا باسم البابا بندكتس الرابع عشر) والكردينال غرياني الذي ولما خطبت الخطبة اعترض عليها سبعة من العلماء على جاري عادة تلك الايام فاجابتهم باللاتينية واسكتتهم فنالت لقب دكتور واعطيت محلاً في مجمع الفلسفة . ثم عينتها الدولة استاذة للطبيعيات وضربت نيشاناً عليه صورتها تذكاراً لذلك فلبثت في هذا المنصب ٢٨ سنة وكانت المجامع العلمية تسابق الى انتخابها عضواً فيها . وسنة ١٧٣٨ تزوج بها فراني الطبيب فولدت له اثني عشر ولداً وماتت في السابعة والسبعين من عمرها وكانت حسنة الطلعة قوية الذاكرة سديدة الرأي

ومنهن حنة مورندي التي ولدت في بولونيا بعد لورا بسي المار ذكرها بخمس سنوات وماتت قبلها بخمس سنوات . وكانت متزوجة برجل فقير حرفته عمل الاشكال التشريحية من الشمع فاخذت تساعده في ذلك ولم تلبث طويلاً حتى فاقته في العلم والعمل وانقنت علم التشريح فدعاها غالي الجراح لتدريس التشريح في مدرسة لعلم الولادة فلبت طلبه وكانت من الدقة والحذاقة على جانب عظيم فلم يمض عليها وقت طويل حتى ذاع صيتها في اقطار اوربا ولقاطر عليها الطلبة من كل فج ودعتها انكلترا وروسيا لتعلم فيها فابت ولبثت في بولونيا ثم عينت استاذة للتشريح في مدرسة بولونيا الجامعة . وهي اول من مثل الاوعية الشعرية والاعصاب الدقيقة بالشمع ولم تزل مصنوعاتها في بولونيا حتى الآن

ومن اللواتي يناسب عدهن هنا ولم يماثلن الطب ماريا اغنسي التي كانت تتكلم بالايطالية والفرنساوية والاسبانية والجرمانية واليونانية والعبرانية وهي في السنة العشرين من عمرها وكانت عارفة بالفلسفة والرياضيات وانشأت في صغرها احدى وتسعين مقالة فلسفية والفت في الثلاثين من عمرها كتاباً مطولاً في الجبر والمقابلة وضمت اليه علم التفاضل والتكامل واظهرت فيه من البراعة ما يعز نظيره . وقد ترجم هذا الكتاب الى الانكليزية

كلسون استاذ الرياضيات في مدرسة كمبردج الجامعة وجعله كتاب التعليم . وكان ابوها معلماً للرياضيات في مدرسة بولونيا فمرض مرضاً شديداً سنة ١٧٥٠ فاذنت لها البابا بندكتس الرابع عشر ان تعلم بدلاً منهُ فلبثت تعلم مدةً الى ان اضناها الدرس فتركت المدرسة وترهبت في احد الاديرة وقضت نحبها سنة ١٧٩٩ . ولما كانت لورا بسي تعلم الطبيعيات في مدرسة بولونيا وحنة مورندي التشريح ومارياغنسي الرياضيات كثر عدد الطالبات في تلك المدرسة ونال كثيرات منهنَّ لقب دكتور في الفلسفة او في الطب . ولو شئنا ان نعدد اسماء اللواتي نلنَ لقب دكتور في الطب من مدرسة بولونيا وپادوى وپاڤيا وفرارا وغيرها لطال بنا المجال فوق الاحتمال فحسبنا ما مضى دليلاً على نجاح نساء ايطاليا في العلم عموماً وفي الطب خصوصاً

اما في فرنسا فقد ورد في كتابة كتبت في القرن الرابع عشر انهُ لم يكن يباح للجراحين ولا للجراحات ممارسة الجراحة الاَّ بعد ان يجتازوا ويجتزن الامتحان المدقق . وهذا دليل على ان النساء كنَّ يشتغلنَ بصناعة الطب هناك من ذلك العصر وكان يرخص لهنَّ بالاشتغال فيهِ شرعاً

واما في اسبانيا فيظهر من سجلاَّت مدارس قرطبة وسلامنكا والكالا ان هذه المدارس قد منحت لقب دكتور في الطب لكثيرات من النساء اللاتي درسنَ فيها

وقام في جرمانيا طبيبات كثيرات اشتهرنَ في الطب . اما بلاد الانكليز فلا يظهر انهُ قام فيها طبيبة درست الطب درساً قانونياً قبل هذا العصر . وقد كثر الآن عدد متعلمات الطب والمشتغلات فيهِ في اوربا واميركا وعددهنَّ يزداد يوماً فيوماً ولا عجب ان المرأة التي خصتها العناية باللطف والصبر وحسن العناية جديرة بالتطبيب والتمريض كالرجل ان لم تكن اجدر منهُ بهما » انتهى

وقد عانت النساء في انكلترا مشقة عظيمة للانتظام في سلك طلبة الطب فمنذ نحو خمسين سنة تقدمت سبع سيدات انكليزيات برآسة المس جكس بلايك الى عمدة جامعة ادنبرج في اسكتلندة طالبات دخول القسم الطبي فيها لدرس فنّ الطب . فأجبن الى طلبهن عن كراهية وبعد مصاعب جمة . وما كدن ينتظمن في سلك الدروس حتى أُلقيت العراقيل في سبيلهنَّ فلم يسمح لهنَّ بحضور فرق الطلبة من الشبان ولا بالاشتراك في الكلينيك فاضطررن ان يستجرن بعض كرام الاطباء فكانوا يلقون عليهنَّ دروساً خاصة . وطلب منهنَّ ضمان مالي قدرهُ مئة جنيه اجرة التعليم السنوية . ولفتن شديد الاضطهاد من الطلبة زملائهنَّ

فكان غلاظ القلوب منهم يتجمهرون عليهن في الاسواق ويصفرون لهن استهزاء ويرشقونهن بالعصي والحجارة

وبالرغم من ذلك كله دأبن في دروسهن وكن يتنقلن بين منازلهن وغرف الدرس والخطب بحراسة بعض كرام الطلبة . فابدين في دروسهن حذقاً وكفاءة ولسوء حظهن قررت عمدة المدرسة اعطاء احداهن جائزة في الكيمياء . فهاج الطلبة وماجوا وحاولت عمدة الجامعة اقناع احد من كبار اساتذتها برآسة الاحتفال الذي كان في النية عقده لمنح تلك الجائزة فلم يقبل احد فألغي الاحتفال

وما زالت مصاعبهن تتوالى حتى وجدن ان لا فائدة لهن من ملازمة الدروس في تلك الجامعة فهجرتها وقصدن لندن لدخول طالبات دخول احدى مدارسها الطبية الشهيرة فلم تكن العقبات التي صادفنها اهون مما كان في جامعة ادنبرج . ذلك بان الاطباء اساتذتها كانوا يعتقدون عن حسن نية ان المرأة لا تصلح لفن الطب من حيث مزاجها وتربيتها وعقلها ولا للقيام بمطالبه العملية والجراحية . يضاف الى ذلك حسد الطلبة ومقاومة جمعياتهم التي تدافع عن مصالحهم واشمئزاز الجمهور من اقدام النساء على درس الطب ولاسيما انهم كانوا يعتقدون ان المرأة ليست كفوءاً للرجل في القوى العقلية ولما اظهرن على مر الزمان انهن لسن دون الرجال في ذلك بقي الجمهور زماناً طويلاً يستنكف من دعوة طبيبة لعملية جراحية اولتوليد حامل ذهاباً الى انهن ضعيفات الاعصاب رقيقات القلوب

واخيراً سمح لهن بدخول تلك الكلية مع سبع رفيقات اخريات فصار عدد الطالبات اربع عشرة طالبة . ثم لم يكن الا القليل حتى زاد الى اربع وثلاثين طالبة . فعين لهن اساتذة يلقون عليهن الخطب ولكن صعوباتهن لم تنته واعظمها رفض مدارس لندن الطبية وكان عددها حينئذٍ ١٩ مدرسة — ان تقبلهن في امتحاناتها . ومثل هذه الصعوبة في عظمها انه لم يقبل مستشفى من مستشفيات لندن الكبرى وعددها ١٢ ان يسمح لهن بالتمرن فيه . وبلا هذين الامرين لا يمكنهن ممارسة صناعتهن . على ان هاتين العقبتين مهدتا لما فتحت احدى كليات ارلندا الطبية ابوابها في وجوه الطالبات واعلنت انها تمنح الشهادات لمن يكمل دروسه منهن فيها . وقرر احد مستشفيات لندن ان لا يرد طبيبة تطلب التمرن فيه واسمه المستشفى الملكي الحر وهو من مستشفيات لندن الكبرى

ولهذا المستشفى حكاية تستحق الذكر . فحواها ان طبيباً شاباً اسمه مارسدن كان يتمرن في احد مستشفيات لندن وبينما هو عائد ذات يوم الى منزله لقي امام احدى الكنائس فتاة ثقل

عليها المرض فوضعها في مركبة ودار بها على ابواب المستشفيات ملتمساً ادخالها في احدهن لمعالجتها فلم يجب اي طبيب بدعوى ان ليس معها كتاب توصية من احد المكتتبين بالمال لتلك المستشفيات . واخيراً ماتت الفتاة فعقد مارسدن العزيمة من ذلك الحين على السعي في انشاء مستشفى في لندن يقبل الفقراء المرضى . فوفّق الى بناء المستشفى المذكور بمساعدة بعض اصحابه الاغنياء . واتفق ان المستشفى كان الوحيد الذي لم يكن فيه مدرسة طبية ملحقة به . وكان يعلم ما في انشاء مدرسة طبية للذكور والاناث من المصاعب للاسباب المتقدمة فقررت لجنة انشاء مدرسة للاناث فقط . ولكنها لم تتمكن من ذلك الاّ بعد تمهيد صعاب جمة من ميل الرأي العام حينئذٍ وقوة الخصوم وضعف الانصار . ومما يدل على تلك الصعاب ان مجلس ادارة المدرسة أُجبر ان يدفع الى المستشفى اعانة سنوية وان يعطيهُ كل ما تكسب المدرسة من اجور الكلينيك

وبعد ذلك بقليل قررت جامعة لندن الشهيرة ان تمنح شهاداتها الطبية للطالبين والطالبات على السواء . ولكنها لم تبلغ هذا القرار الاّ بعد معارضة شديدة من بعض اعضاء مجلس ادارتها حتى ان احدهم وهو السر وليام جنر قال في حديث خير لي ان امشي وراء ابنتي الوحيدة الى القبر من ان اراها طبيبة . فأجابهُ طبيب آخر مشهور لا يزال حيًّا الى الآن ان المسئلة لا تتعلق الآن ببنتك بل ببنات غيرك

ومضت سنون كثيرة كانت محكًّا للطالبات والطبيبات وضرب حولهن نطاق من عيون الارصاد هذا يرتو اليهن بعين الرضى والاشفاق وذاك يشزرهن بعين السخط والانتقاد . وخشي بعض انصارهن ان يتمادين في اظهار رقة القلب عند ممارسة مهنتهن ولكن غيرهم خشوا ضدّ ذلك — اي انهن يفقدن هذه الموهبة العالية . كذلك خشي كثير من انصارهن انهن يقصرن في اظهار اصالة الرأي وحسن السياسة والكياسة في صناعتهن وهي صفات لازمة للاطباء . فدلّت التجارب على انهن لا يختلفن عن الاطباء وانهن يشاركنهم في معظم محاسنهم ومساوئهم

بقيت عقبة عظيمة امامهن وهي ان المدرسة الطبية المشهورة والمعروفة باسم « الكلية الملكية للاطباء والجراحين » رفضت اعطاء شهادتها للنساء . وفي كثير من المستشفيات الكبرى والمعاهد الطبية العمومية قانون يمنع توظف طبيب لا تكون معهُ تلك الشهادة . ففي سنة ١٨٩٥ كتب مجلس ادارة مدرسة الطب النسائية في لندن عريضة امضاها اطباء المستشفى الملكي الحرّ واساتذة المدرسة الطبية الملحقة به وعدد غفير من اطباء لندن المستقلين

وارسلت هذه العريضة الى الكليات المذكورة وقد رجا اصحابها منها ان تجيب النساء الطبيبات الى مطاليبهن . ولكنها رفضت ذلك باغلبية قليلة

فصبرت مدرسة الطب النسائية ١٤ سنة وعادت فكتبت عريضة اخرى بالمعنى المتقدم فاجيبت هذه المرة الى طلبها حالاً . فاقبلت الطالبات على الكليات ايما اقبال وعددهن كل سنة في ازدياد وهن يخرجن منها افواجاً حاملات شهاداتهن

اما الجمعيات الطبية فظلت تتنكب الطبيبات حتى اضطر المجمع الطبي البريطاني المشهور الى قبول المسز جاريت اندرسون سنة ١٨٧٨ عضواً فيه لا رغبة منه فيها بل عن خطإ لفظي في نص قانونه . وبعد قبولها اصلح ذلك الخطأ ثم اقفل الباب اقفالاً محكماً وراءها ودون سائر الطبيبات اخواتها ولكنه ندم سنة ١٨٩٢ على ما فعل ومن هذا التاريخ فتح بابه في وجه الطبيبات يقبلهن في عضويته كالرجال . وهذا بعض الجمعيات الطبية حذوه واشتد النضال على دخولهن في جمعية امراض النساء وجمعية التوليد وجمعية استعمال المخدرات ولكنهن قبلن اخيراً فيها لشدة الحاحهن وعظم مقاومتهن وحسن وساطة بعض اخوانهن من كبار الاطباء . ومن عهد قريب اتحدت اكثر جمعيات لندن الطبية على تأليف « الجمعية الملكية الطبية » فاخذت اعضاءها من النساء منها الى هذه الجمعية ولكن بعد مقاومة طالت ولم يكن النساء في اثنائها شرف الانتماء اليها واخذ لقب « فلو » الذي يعطى لاعضائها . ثم أعطين هذا اللقب اخيراً

وهناك ما يدل على ان سائر مدارس لندن الطبية تنوي قبول الطالبات فيها بلا معارضة . وقد افادت الحرب الطبيبات فائدة كبيرة اذ كثر طلبهن اثبات الموجود منهن دون المطلوب . ومن رأي العارفين ان ذلك الطلب يبقى بعد الحرب كما هو الآن ولاسيما ان الميل الى استخدامهن في المعاهد المختلفة ومنها دوائر الحكومة بدا واشتد قبل الحرب . فمنهن موظفات في وزارة التجارة والداخلية والمعارف وقومسيون التأمين على العمال . ومضت ثلاثون سنة وهن يستخدمن في وزارة البوستة . وفي انكلترا وويلس ٣٣ طبية من طبيبات الصحة . واستخدمت كثيرات منهن طبيبات في سجون النساء ومستشفيات المجذومات . ومنهن طبيبات يستخدمن في جمعيات التبشير بالانجيل في جميع انحاء الكرة